

الرتب العلمية في الدولة العلية

لجناب المحب السيد محمد الهادي يوم

كل دولة مدينة الاساس قوّة الدعام تأسس بنيانها على اصلين ثابتين وهما السيف والقلم اي القوة الحربية والقوة السياسية . وكان هذا شأن الممالك الاسلامية في زمن الدول العربية وكان كثير منها يجعل طائفتين السلطنتين وزيرين خاصين يسمى احدهما وزير السيف والآخر وزير القلم او الانشاء او التوقيع والاول يتولى الاهتمام بالجيوش والجهاد وفتح الممالك ودفع الاعداء . والثاني ينظر في كل ما يتعلق بشؤون المملكة الداخلية من ادارية وسياسية وهو بمثابة وزير الداخلية والخارجية الآن . ولم يزل احد وزراء الحكومة التونسية يلقب بوزير القلم الى يومنا هذا الذي اندثرت فيه الحقائق وبقيت الرسوم تشبهاً بما كان عليه الحال في زمن عز الدولة القديمة ونظامتها

ولما جاءت الدولة العلية العثمانية اقتنت آثار الدول التي سبقتها في تنظيم الملك وزادت عليه ما انتضاه الزمان وترقي نوع الانسان في مدارج الحضارة . وقد حفظ فن التاريخ والجغرافيا ماثرها النراء في فتح الممالك وجمع الامم المتفرقة تحت راية واحدة سعياً وراء الغاية المطلوبة والضالة المشوذة وهي توحيد الشعوب وتأليف القلوب الاصر الذي طالما سعى اليه الملوك في كل زمان ومكان . غير ان الدولة العلية لم تقتصر على ما عندها من السلاح والبأس للبلوغ الى هذه الغاية كما يتوهم من يقرأ تاريخها الذي لم يحفظ فيه الا ذكر الحروب بل اعتمدت ايضاً على واسطة اخرى من اجل الوسائط الموصلة الى ارتقاء الامة في حراقي الفلاح والرفاه وهي نشر العلوم والذنون اعني قوّة القلم . ومن اراد ان يعلم ما كان للدولة العلية من الشأن الخطير في هذا المضمار وما بذلته من الوسائل لنشر لواء العرفان ومحو آثار الجهالة فما عليه الا ان ياتت الى الرتب العلمية التي فيها

الى الآن فانها شاهدة بما بذله الدولة من العناية في تعميم المعارف والحث على اكتسابها وقد بدأت الدولة العلية بذلك من اول نشأتها . وتاريخها وتاريخ المعارف فيها واحد حتى ان اول من لقب لقب باشا اثنان من العلماء في زمن السلطان عثمان الاول وهما العارف بالله مخلص باشا وابنه عاشق باشا . وتزوج السلطان عثمان بنت عالم كبير من علماء عصره الصالحين الزاهدين وهو الشيخ اده بالي واولدها سلالته الطاهرة . غير ان تنظيم المراتب العلمية وتكثير المدارس وتعميم المعارف وسن القوانين لها لم يبتدىء حقيقة

الأ في زمن السلطان اورخان وهو الدور الاول الذي دخلت فيه الدولة وعقبه دور ثان في عصر السلطان محمد الفاتح ثم دور ثالث في عصر السلطان سليمان القانوني وهو الترتيب المتبع في اصوله الحكمة حتى الآن ولو طرأت عليه بعض الطوارئ التي قلبته عن موضعه الاصلي لاسباب مبسوطه بالاسباب في تاريخ العلامة مجردت باشا

هذا وعلى ذكر لقب باشا نقول ان هذه اللفظة تركية معناها الاخ الاكبر وهي تستعمل بهذا المعنى في بلاد الاناطول حتى الآن. وذهب بعض مؤرخي الافرنج ان معنى باشا رجل السلطان من كلمتي ابي شاه وحقق لهم هذا الزعم ما رواه في مملكة الفرس قديماً وحديثاً من نقل قب الوزراء والمقربين القاباً مشتقة من اسماء الاعضاء دلالة على شدة التقرب والالتصاق فقد كانوا يلقبون وزير الحربية وقواد الجيش بأرجل السلطان ووزير المالية بيد السلطان والولاة يعيرون السلطان والسفراء بأذان السلطان والقضاة والحكام بألسنة السلطان. ولم يزل عندهم شيء من ذلك الى الآن كقولهم عضد السلطنة وما اشبهه. غير انه فات اولئك المؤرخين ان عادة الترك غير عادة النجم لاسيما وان اترك يستعملون كلمة باشا بمعنى الاخ الاكبر لهذا العهد ولو استعملت بمعنى رجل السلطان لما رضي السلطان عثمان الغازي دلي ورعه وتقواه ان يطلقها على اثنين من أجلة علماء عصره والاحاديث النبوية والآيات القرآنية تأمر بتعظيم العلماء وتكريمهم وحاشا له ان يلقب علماء الدين بالارجل وملوك الفرس كانوا يلقبونهم قبل الاسلام بالالسنة. ويتضح من كل ما تقدم ان معنى كلمة باشا الحقيقي الاخ الاكبر. ولا يخفى ما في اطلاقها على العلماء من شدة العناية بهم عند تأسيس الدولة العثمانية وتشديد قوة القلم بهم لحفظ ما شيد السيف فتتوفر لدى الدولة معدات القوتين اللتين لا قوام للممالك المنتظمة الا بهما كليهما لان السيف مخراق لاعب اذا لم تنقف الحجة حده. واذ قد تمهد ذلك نشرع في وصف الادوار الثلاثة المشار اليها

الدور الاول عصر اورخان

لا يخفى ان السلطان عثمان الغازي ترك ولدتين اكبرها علاء الدين وثانيها اورخان. وادركت السلطان المنية وهو في حصار بروسه (بورصة) وكان اورخان المتولي امر الجيش لان علاء الدين لم يكن يميل الى الحروب وتجنب المشاق بل كان عالماً صالحاً زاهداً مشغولاً بعبادة الخالق عن شؤون الخلق فلما توفي والده ابي ان يتولى الملك فابقاه لاختيه واشترط عليه اخوه ان يعضده في تدبير الشؤون الداخلية وإحكام نظامها ليكونا

مظهرًا للاية الكريمة « واجعل لي وزيراً من اهلي حارون اخي اشدد به ازري واشركه في امري » فيتفرغ اورخان للجهاد وفتح الممالك . فتولى علاء الدين باشا الصدارة العظمى وهو اول من تولاها وتلقبته بالباشا حجة لنا ايضاً على صحة التفسير الذي بسطناه آنفاً . واما توفي علاء الدين باشا وتولى سليمان باشا بن اورخان الصدارة مكانه اطلق لقب باشا على الوزراء وكبار القواد على النحو المتعارف لهذا العهد

وفيما كان السلطان اورخان مرجحاً مهمه الى الحروب وفتح القلاع والحصون كان اخوه علاء الدين باشا ينظم الشؤون الداخلية ويضرب السكة ويجعل لكل فرقة من الفرق المؤلفة منها قوة السلطنة العلية والادارية والسياسية والحربية نظاماً خاصاً وقانوناً مناسباً ولبساً مخصوصاً . ونقل تخت الملك حينئذ من يكي شهر الى دار الامان (بروسه) فبنت فيها المساجد والمدارس وانشئت المباني النسيحة لسكنى الطلبة والمجاورين . وغني عن البيان ان الطلبة يتلقون دروسهم في البلاد الاسلامية في المساجد فهي للعبادة والتعليم معاً وقد اوقفت عليها الاوقاف الواسعة لطاين الفايدين كما هو مصرح في شروطها . وبنتت المدارس في العاصمة القديمة يكي شهر ايضاً وفي غيرها من المدن التي فتحت في ذلك العصر واجريت الجرايات الواسعة على الطلبة والمدرسين لكي لا يشتغلوا بشيء آخر عن الدرس والتنقيب في الكتب والدفاتر . وكان السلطان اورخان يقرب العلماء والصلحاء وينظم قدرهم وبالغ في اكرام منلائسان باشا الايراني واكثر المطامير لارباب الطرق الصوفية وبنى لهم الزوايا واماكن الذكر فكثرت الطرق في زمنه وكثر عدد المرابين . واقتدى به بعض اهل زمانه في بناء المدارس وصاروا يتقربون اليه بها فقد نقل هاسر في تاريخه ان السلطان اورخان وعد لاله جاهين وهو من كبار القواد المقربين ان يهبه جميع الغنائم التي يفتحها في احدى النزوات ثم تبين ان الغنيمة شيء كثير جداً وود ان لا يعطيه اياها كلها واستغنى منلائج الدين الكردي في ذلك فانقى بانه لا يجوز الرجوع عن الهبة وعلم لاله جاهين ذلك فانقى كل ما اصابه من الغنيمة على انشاء المدرسة العالية بروسه استجلاً لارضاء السلطان . وجرى سلاطين آل عثمان على هذه الخطة ولم يحدثوا فيها تغييراً يذكر الى زمن فتح القسطنطينية

الدور الثاني عصر السلطان محمد الثاني

لما فتحت القسطنطينية كان مضى على نظام الدولة العثمانية الذي وضعه السلطان اورخان نحو مئة وخمسين سنة وقد تغيرت الاحوال كثيراً في هذه المدة وزادت

الحاجات بتمتضي ناموس الطبيعي في ارتقاء النوع واتسعت المملكة وكثر اختلاط الامم المؤلفة منها فرأى السلطان محمد الفاتح ان لا بد من تنقيح القوانين وزيادتها بعد ان تم له ما كان يتوق اليه وهو ضم جميع مملكة الروم الشرقية الى مملكته والاستقرار بقاعدتها النعمة . فاتدى بخدمه الاعلى اورخان واستعان بوزيره محمود باشا على تنظيم شؤون الدولة وترقيتها فحوّل ثمانيا من كنائس القسطنطينية الى مدارس وابقى لها اوقافها الاصلية لينفق ريعها عليها وبني جامعة الشهيرة في وسط ثماني مدارس أخرى سماها بالتمتة وجعلها كعبة العلم التي تشد اليه الرجال في تلك البلاد ولم يزل أهلاً عامراً بالعلم والعلماء الى هذا اليوم فهو عند الترك بمثابة الجامع الازهر في القاهرة وجامع الزيتونة في تونس والتررزين في فاس . ولم يكن التعليم فيه قاصراً على بعض العلوم والفنون كما هو الآن في أكثر الجهات بل كانت الدروس تلتقى في جميع احتياجات الناس وما يفهم في دينهم ودنيام فيخرج الطلبة منه مستوفين لشرائط التعليم ومؤهلين لادارة الاعمال فيكون منهم قواد الجيش والوزراء والمهندسون والاطباء والفقهاء والشعراء والادباء والمؤلفون . فان جميع رجال الدولة وكل من ابقى له اسماً في سجل ابناءها النافعين في ذلك العصر وما بعده قد تخرج من هذه المدارس . وكانت شروط التحصيل فيها صعبة جداً كما هي الآن في أكبر المدارس الاوربية . فيدخل الطالب اولاً الى المدارس الصغرى لتعلم العلوم الابتدائية وينتقل الى مدارس الفاتح حيث يتحصل على العلوم العالية ويطلق عليه اسم « دانشمند » اي النبيه ثم يترقى بحسب جده واجتهاده ومثابرته على التحصيل الى ان يصير ملازماً او معيداً للدروس واما ان يكتبي بذلك وينتظم في سلك الائمة والخطباء ومدرسي المدارس الصغرى او انه يثابر على تحصيل العلوم الى ان يجوز منصب التدريس ويترقى في سلك الموالي والقضاة . وكان منصب التدريس من اعظم المناصب شأنها وارفعها مقاماً لا يناله الا العلماء المحققون كما يدل عليه اللقب الذي لم يزل يلقبون به في العرائض الرسمية وهو « قدوة العلماء المحققين » وكان ينظر الى المدرس نظر المجتهد . وقد حكى جودت باشا في تاريخه انه « لما كان احد العلماء واسمه علي جمال الدين افندي في الحجاز ووجهت عليه مشيخة الاسلام فصبوا له وكيلاً من مدرسي صحن (اي مدرسة جامع الفاتح) الى حين مجيئه وهذا دليل على علو نزلتهم ورفعة شأنهم » قلت وحتى الآن يطابق على بعض كبار مدرسي الاستانة العلية لقب وكيل الدرس وذلك ان بعض السلاطين السابقين كالسلطان بايزيد الثاني وغيره اشتروا في اوقافهم ان بعض الدروس

الكبيرة يدرسها شيخ الاسلام نفسه بصفة كونه اعل اهل زمانه في البلد ثم لما تغيرت الاحوال وصار منصب المشيخة مرتبطاً بسياسة الدولة ومجلس الوكلاء اناش شيخ الاسلام عنده في الدرس وكيلاً لكي يتفرغ دولشؤون منصبه. ومهما كان الامر فان جعل الفاه الدرس من خصائص شيخ الاسلام دليل كبير على اعناء السلاطين بالتدريس وتعظيم لشأنه ونظرهم الى من يباشره نظر التكريم والاحترام. اما الدروس فكانت تعطى في فنون شتى كالنحو والصرف والمنطق والعقائد والكلام واللغة والانشاء والادب والمغاني والبيان والبديع والفقه والاصول والحساب والهندسة والفلك والرياضة بانواعها والحديث والتفسير. ولا ينتقل التلميذ من مدرسة الى اخرى ولا ينتظم في سلك معيدي الدرس الا بعد الحصول على الشهادات اللازمة بكل دقة واعناء ولا ينال درجة التدريس الا من مضى عليه سبع سنين على الاقل في وظيفة المعيد

وكان السلطان محمد الفاتح عالماً اديباً شاعراً يناظر الشعراء ويراسلهم وقد اخص به ثلاثين شاعراً لازمته مدة ملكه واتخذ لنفسه اسم «عرتي» يوقع به على انشاءاته حتى يسهل على مناظره طرق المناظرة ولا يهابون مقامه العالي وسخطونه الساطعة ولا يخفى ما في هذه الطريقة من لطف الطبع ودقة الذوق. وكان يكرم العلماء ويكثر لهم العطاء ولم يقتصر على علماء مملكته بل كان يواصل بعض الاجانب حتى انه كان مرتباً لملا نور الدين عبد الرحمن بن احمد الجامي شارح كافية ابن الحاجب في النحو مبلغ الف محبوب ومثلها للشاعر الفارسي خواجه جهان صاحب (مناظرة الانشاء) بالفارسي يرسلها اليها كل سنة الى محل اقامتها الاول بخراسان والثاني بالهند. وقد راجع سوق الادب في زمانه رواجاً واسعاً وظهر الادباء والشعراء في كل جهة من مملكته ومن جملة مشاهيرهم شاعرة من قسطنطيني تعرف باسم زينب

واستمر هذا الحال في مدة خلفائه وقد سبقت الاشارة الى ما قرره ابنة السلطان بايزيد الثاني من حيث التدريس في جامعها مما يدل على اعنائها بالعلم وترفيح شأنه وتزيد على ذلك ان حنيدة السلطان ياوز سليم الاول كان مولعاً بالشعر والادب والاطلاع على جملة لغات فكان ينظم بالتركية والفارسية النظم الرائقة ويتكلم بالعربية الفصيحة وقد وجد على جدار الطنجرة التي اقام بها بجزيرة الروضة في منيل القاهرة بعد فتح مصر هذان البيتان مكتوبين بخط يده وها

الملك لله من يظهر بنيل مني يردده قسراً ويضمن بعده الدركا

لو كان لي او لغيري قدر اقلية فوق التراب لكان الامر مشتركاً
وتحتهما ما صورتها « وكتبه سليم » قال العلامة القطبي « ولعمري ان كان هذان
البيتان من نظم المرحوم فما غاية في البراعة ونهاية التمكن في الصناعة فيدل على ملكته
رحمة الله في اللسان العربي ايضاً لانها من اعلى طبقات الشعر العربي الفصح البليغ المنسجم
وان كان قد تمثل بها وما تغيره فهذه رتبة عالية في حسن التمثل ولطف الاستحضار
وفهم الاشعار العربية وذوقها بها وهذا القدر يستعظم ويستكثر على عظماء العجم المكبين
على العلوم العربية فضلاً عن سلاطينهم المشغولين بضبط الممالك وفتحها » (ستأتي البقية)



اليد اليمنى واليد اليسرى

للباحثين عن علل المعلومات اسلوبان اسلوب الحدس المجرد واسلوب التجربة والامتحان
ومعلوم ان الاسلوب الثاني اقوى على الانتفاع ولا سيما اذا طال الاستقراء فيه وعليه المعول
الآن في جميع العلوم الطبيعية ويده حلت أكثر المسائل التي خبط المتقدمون فيها خبط
عشوائية. ومن المسائل الغامضة التي اختلف العلماء في تعليلها ولم يجعروا على قول واحد فيها
مسألة استعمال اليد اليمنى أكثر من اليسرى ترى أكثر الناس يعتمدون على يمينهم وقل من
يعتمد على يسراه. ومعلوم ان ذلك لا يحدث اتفاقاً اذ لو كان الاعتماد على اليد اليمنى
واليسرى حادثاً بالاتفاق لوجب ان يكون نصف الناس عدداً من المعتمدين على اليد اليمنى
ونصفهم من المعتمدين على اليسرى والامر على غير ذلك فلا بد اذا من داعر دعا الناس
الى تفضيل اليمنى على اليسرى. وان قيل ان الوالد ين يربون اولادهم على استعمال اليد
الاولى دون الثانية قلنا ان هذا لا يحل المسألة اذا صح بل يحولها الى البحث عن علة
تفضيل الوالد ين لليمنى على اليسرى

واول من بحث في هذا الموضوع بحثاً استقرائياً مؤيداً بالامتحان هو الاستاذ بلديون
الاميركي استاذ السيكولوجيا (علم النفس) في مدرسة برنستون الجادة وقد وقفنا له علي
مقالة مسهبة في جريدة العلم العام ذكر فيها انه جرب التجارب التالية في ابتداء من حين
كان عمرها اربعة اشهر الى ان بلغت الشهر العاشر من عمرها وكان يجلسها ويمرر
بديها ويضع امامها شيئاً ثم يدها اليه لتمسكه ويراقب عدد المرات التي تمد فيها اليد اليمنى